

حياة قلوبنا في ذكر الله

ذكر الله عز وجل قوت للقلوب، وقرة للعيون، وسرور للنفوس، به تُجلب النعم وتُدفع النقم؛ فهو نعمة عظمى ومنحة كبيرة، له لذة لا يدركها إلا من ذاقها، عبر عنها أحدهم فقال: "والله إنا لفي لذة لو علمها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف". وذكر الله هو أعظم ما فتق عنه لسان وتدبره جنان. فلا بد من اجتماع اللسان والجنان حتى يؤتى الذكر ثماره ويستشعر العبد آثاره.

فقد وصف الله تعالى أولى الألباب بأنهم : {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقَعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقَنَا عَذَابَ النَّارِ} فهم جمعوا بين ذكر الله تعالى في كل أحوالهم ودعائه، والتفكير في خلق السماوات والأرض.

وقال أحد العارفين: "لا اعتداد بذكر اللسان ما لم يكن ذلك من ذكر في القلب، وذكره تعالى يكون لعظمته؛ فيتولد منه الهيبة والإجلال، وتارة لقدرته فيتولد منه الخوف والخشية، وتارة لنعمته فيتولد منه الحب والشكر، وتارة لأفضاله الظاهرة فيتولد منه التفكير والاعتبار؛ فحق للمؤمن أن لا ينفك أبداً عن ذكره على أحد هذه الأوجه".

الحالة لمن ذكر

لَا نقصد بالحياة هنا الحياة المحسوسة التي يشترك فيها الإنسان مع باقي الكائنات الحية؛ وإنما نقصد بها حياة الروح وروح الحياة، حياة القلب وقلب الحياة،

نَفْسَ الْحَيَاةِ الَّتِي عَبَرَ عَنْهَا اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِبُوا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُخْيِكُمْ} . فَهَذِهِ الْحَيَاةُ مَتْحَقِّقَةٌ بِالْاسْتِجَابَةِ لِأَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقد أخبر أن : "مَثَلُ الْذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالذِي لَا يَذْكُرُهُ ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ".
ومن مظاهر هذه الحالة اطمئنان القلب وبقائه في الله تعالى ،

ومن مظاهر هذه الحياة اطمثان القلب وبقينه في الله تعالى،

واستكمال الآية الكريمة آنفة الذكر: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْوِلُ بَيْنَ الْمُرْءَ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تَحْشَرُونَ}. وهذا يعني أن هناك علاقة قوية و مباشرة بين هذه الحياة والقلب؛ فحيولة الله بين المرء وقلبه تعني موات هذا القلب وعدم انتفاعه بالموعظة.

وذكر الله عز وجل هو الطريق الرئيسي لتحقيق هذا اليقين القلبي، ومصداق ذلك قول الله عز وجل: {الَّذِينَ آمَنُوا
وَتَطْمَئِنُ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ}.
ومن أول صفات المختتنين {الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَتْ قُلُوبُهُمْ}.

وتعالى القلب الميت الذي لا يتأثر بالذكر {فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} وعلاقة اطمئنان القلب بالذكر أن العبد إذا ذكر من أسماء الله وصفاته : الرزاق الفتاح الوهاب ال慨ير الباطس؛ اطمأن على رزقه.

وإذا ذكر من أسمائه تعالى: الغفور الرحيم التواب العفو؛ اطمأن على مغفرة ذنوبه وتکفیر سیئاته.

وإذا ذكر من أسمائه: العليم الخبير السميع البصير؛ اطمأن على أن ما أصابه وإنما هو بقدر الله وعلمه. وإذا ذكر من أسمائه: القادر المنتقم الجبار؛ اطمأن على قدرة الله تعالى على الانتقام من المتجررين ورد كيد المعتدين ودفع الظالمين.

وهكذا فالعيش مع أسماء الله وصفاته يكسب القلب طمأنينة ويقيناً، وينزل على النفس برداً وسلاماً. ويكتمل اليقين القلبي بالتغلب على الشيطان الذي أخذ على نفسه العهد أن يضل الإنسان، وأن يوسر له ويزعزع إيمانه ويقيمه في ربه.

وقد أخبرنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ مِنَ الْأَسْلَحَةِ الْفَتَاكَةِ لِمَوَاجِهَةِ الشَّيْطَانِ؛
حِيثُ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ خَسَّ، وَإِذَا نُسِيَ اللَّهُ قَلَمَ قَلْبُهُ فَوَسُوسَ»
رواه الحافظ الموصلي.

إذا فحية القلب الذي ينصلح الجسد بصلاحه ويفسد بفساده متحققة بذكر الله، والتفكير في أسمائه وصفاته، والعيش في رحابه.

ثم نأتي إلى نوع آخر من الحياة في رحاب الذكر؛ ألا وهو حياة اللسان. وتمثل هذه الحياة في الوصية الغالية التي وصى بها الحبيب صلى الله عليه وسلم أحد أصحابه قائلاً : "لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ" رواه الترمذى

وقال صلى الله عليه وسلم : "أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَيَّ اللَّهِ أَنْ تَمُوتَ وَلِسَانُكَ رَطْبٌ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ" رواه ابن حبان والطبراني عن معاذ.

والرطوبة في الزرع علامة على النضارة والأخضرار والحياة، ورطوبة اللسان علامة على استمرار مقومات الحياة له، وعكس الرطوبة البيس والجمود، وهو يعني التحجر والموت والقساوة.

ومن مظاهر الحياة في رحاب الذكر حياة العينين، وعلامة هذه الحياة الدمع من خشية الله. كما ذكر صلى الله عليه وسلم من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله "وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيٌ فَفَاضَ عَيْنَاهُ".

قال القرطبي: "وفيض العين بحسب حال الذاكر وبحسب ما يكشف له؛ ففي حال أوصاف الجلال يكون البكاء من خشية الله، وفي حال أوصاف الجمال يكون البكاء من الشوق إليه."

وقال بعض أهل العلم: "من رأى مبتلى فدمعت عيناه فهو من الذاكرين الله؛ لأن من المبتلين إذا رأهم المؤمن تدمع عيناه؛ لأنه يذكر نعمة الله عليه فهذا كأنه ذكر الله بلسانه".

وقال أحد العارفين: "المؤمن يذكر الله تعالى بكله؛ لأنه يذكر الله بقلبه فتسكن جميع جوارحه إلى ذكره؛ فلا يبقى منه عضو إلا وهو ذاكر في المعنى، فإذا امتدت يده إلى شيء ذكر الله فكف يده عما نهى الله عنه. وإذا سعت قدمه إلى شيء ذكر الله فغض بصره عن محارم الله. وكذلك سمعه ولسانه وجوارحه مصونة بمراقبة الله تعالى، ومراقبة أمر الله، والحياة من نظر الله؛ فهذا هو الذكر الكثير الذي أشار الله إليه بقوله سبحانه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كثِيرًا * وَسَيَحُوَّهُ بَكْرَةً وَأَصِيلًا}"

ذكر ما بعده ذكر

المتعدد عليه في دنيا الناس أن الفقير هو الذي يذكر الغني، والضعيف يذكر القوي. ولكن مع الله تعالى الأمر مختلف؛ فهو سبحانه يعامل عباده من باب الكرم والفضل. فتجده سبحانه يخبرنا أنه يذكر من يذكره. بل ويدركه في ملأ خير من ملئه، وهذا منتهى التفضيل والمن.

يقول تعالى: {فَإِذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ}، قال الحسن البصري في معناها: "قال: فاذكروني فيما افترضت عليكم أذركم فيما أوجبت لكم على نفسك".

وقال سعيد بن جبير: "فاذكروني بطاعتي أذركم بمغفرتي ورحمتي".

فيما له من شرف وفضل؛ أن يذكر رب العظيم العبد الضعيف، وأن يذكر رب القوي العبد الضعيف، أن يذكر رب الغني العبد الفقير. إنه ذكر ما بعده ذكر؛ فاذكروني بالتلذلذ أذركم بالتفضل.

اذكروني بالأحسان أذركم بالليل والنهار. اذكروني بالجهد أذركم بالوجود.

اذكروني بالثناء أذركم بالعطاء. اذكروني بالندم أذركم بالكرم. اذكروني في دار الفناء أذركم في دار البقاء.

اذكروني في دار المحننة أذركم في دار النعمة. اذكروني في دار الشقاء أذركم في دار النعماء.

يقول يحيى بن معاذ: "يا غفول يا جهول، لو سمعت صرير الأقلام في اللوح المحفوظ وهي تكتب اسمك عند ذكرك مولاك لم ت Shawqًا إلى مولاك". ويبلغ الكرم منتهاه ويبلغ التفضيل ذروته، حين يخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بقول رب العزة سبحانه وتعالى: "يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّ ذَكْرَتِي فِي نَفْسِكَ ذَكْرُكَ ثُمَّ فِي نَفْسِي، وَإِنَّ ذَكْرَتِي فِي مَلَأِ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي شَيْرًا دَنَوْتَ مِنْكَ ذَرَاعًا، وَإِنْ دَنَوْتَ مِنِّي ذِرَاعًا دَنَوْتَ مِنْكَ بَاعًا، وَإِنْ أَتَيْتَنِي تَمْشِي أَتَيْتَ إِلَيْكَ أَهْرَوْلَ" رواه أحمد.

ولكن الإنسان من طبعه الغفلة والنسيان. وما أتعسه إذا نسي ربه؛ فيكون الجزاء من جنس العمل كما أخبر تعالى {نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيْهِمْ}؛ وما أقسها عقوبة! وما أشد جزاء! فياشقاء من نسيه الله؛ فلن يكون له ذكر في الأرض ولا في

الملا الأعلى؛ فهو من الضائعين في الدنيا والآخرة.

ولذلك قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَيْكاً وَنَحْشِرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبَّ لَمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتَ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتِنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنَسِّى}؛ فنسيان آيات الله في الدنيا سبب نسيان العبد في الآخرة. والأشد من ذلك أن ينسى الله العبد نفسه؛ ولذلك حذر سبحانه وتعالى عباده فقال: {وَلَا}

تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ.

أَسْتَقْصَاءُ الْذَاكِرِينَ

في ظل هذه الحياة وما ديتها الطاغية على المسلم أن يقف مع نفسه ويراجع حاله مع ربه؛ حتى لا ينسيه الشيطان ذكر ربه فيكون من الهالكين. وهذه دعوة للوقوف مع النفس يعرض فيها كل منا نفسه على هذه الأسئلة. ويجب عليها بصدق بينه وبين نفسه.

فإن كانت إجابتـه "نعم" فهو على خير فليحمد الله تعالى ولـيزدد مما هو فيه،

وإن كانت الإجابة "أحياناً" فقد أوشك على الخطر فليحذر أن يقع فيه،

وإن كانت الإجابة "لا" فهو على خطـر فليأخذ نفسه بالحزم قبل أن يصبح في عـداد الضائعـين المنسيـين.

أخي الحبيب لا تحرـم نفسك من أطـيب ما في هـذه الدـنيـا. وليس فيها أطـيب من ذـكر الله تـعالـى.

واحـذر أن يطلع الله عليك فيـكتـبـك في عـدادـ من نـسـوا الله فـنسـيـهمـ.

ونـسـأـ اللهـ أـنـ نـكـونـ لـهـ ذـاكـرـينـ لـهـ مـاـ تـعـاقـبـ اللـيلـ وـالـنـهـارـ .ـ وـالـحـمـدـ لـلـهـ رـبـ الـعـالـمـينـ

كاتب المقالة : منقول

تاريخ النشر : 01/11/2010

من موقع : موقع الشيخ محمد فرج الأصفـر

رابط الموقع : www.mohammdfarag.com